من "أوراق" الرئيس (50)

الجليد .. يذوب: بين موسكو والقاهرة!

فـاروق الصغـــير
الذى جعــل يـده
"مسجدا" للزعماء !

الجديد فى "أوراق" الرئيس السادات أنه يتحدث عن مقدمات ثورة يوليو من الناحية النفسية ، فاختار الملك فاروق بالذات .. ورأى فى تكوينه النفسي والاجتماعي ، سببا واضحا وقوة دافعة لتعجيل انطلاقة الأحداث فى مصر. فقد كان الملك الصغير الأمل المنشود وكان مصدر القوة وكانت يده "الطاهرة" مسجدا للزعماء فى مصر .. فليس غريبا ، بعد ذلك ، أن يقف واحد من الزعماء أمامه وهو يرتجف – الملك هو الذى كان يرتجف – ويطلب إليه الزعيم أن يحقق له أمنية غالية وهى أن يقبل يده . ويتفضل جلالته ويتعطف ويتلطف ويمد يده البيضاء ليقبلها الزعيم !

وقد حاول عزيز على المصرى ، الذى هو أحد الآباء الروحيين للرئيس السادات والشباب الثائر الوطني فى ذلك الوقت ، أن يصلح فاروق وأن يقومه على المبادئ الأخلاقية. ولم يفلح ، بينما حاول كثيرون ونجحوا ، فى أن يشكلوا فاروق على هواهم وعلى هواه .. وأفلت الزمام . ولم يعد أحد قادرا على الملك الصغير .. وكانت عقدته أنه صغير يريد أن يكون كبيرا ، وأنه قصير يريد أن يتطاول ثم طال حتى أصبح كل الزعماء أقزاما .. ولم تكن مشكلة فرد ، وإنما أصبحت مشكلة شعب يتحكم فيه فرد قد استذل أحزابا وزعماء ..

وكان الإنجليز وراء ذلك وأمامه ثم كان صراع عنيف وكان الشعب هو الضحية .. ولكن الشعب لم يطق صبرا على فاروق أو على أحد أو على شئ ..

ونحن نلاحظ أن الرئيس السادات وهو يرتب الأحداث ويسوقها ، لا يرفع عينه عن المعنى والعبرة والموعظة الحسنة .. فهو يتوجه دائماً بتجاربه وتأملاته إلى الشباب الذى هو أمل مصر فى الخير والحق والحرية ..

كأن الخريطة السياسية لمصر فى ذلك الوقت ، مكتوبة " بحبر سرى " إذا تعرض للبخار الساخن ، فإنه يبدو واضحا بارزا .. وكأن البخار الساخن هو موجات السخط والغضب فى عهد الملك فاروق ..

كأن الملك فاروق نسه عدسة مكبرة وضعت على عيني التاريخ فرأى كل حروف الثورة المصرية بارزة ..

كأن الملك فاروق " ميكروفون " وضع على قلب مصر ، فأصبحت مسار الدم فى عروقها هديرا صاخبا ..

وإذا كان لأحد من فضل فى أن ترى مصر عيوبها وتصرخ ، وإذا كان لأحد الفضل فى أن يوسع الهوة بين السراي والشعب ويعمقها ويسقط فيها : فالفضل يرجع إلى فاروق طفلا وشابا ورجلا ..

فقد كان مثل كرة الجليد التى تتدحرج ، فإنها تزداد حجما كلما أمعنت فى الانطلاق ..

إن فيلسوفا فرنسيا اسمه كارتو عندما أراد أن يفسر كيف تتلاقى الصدف والمفارقات فى التاريخ وصفها بأنها كرة من القطن المبلل بالبنزين اصطدمت بنار مشتعلة .. فاشتعلت الكرة أيضا ..

أى أنه يريد أن يقول إن هناك – دائما – مسارين للأحداث .. وفجأة يلتقي هذا المسار .. تماما كما تلتقى الكرة المبللة بالبنزين بنار ساكنة فى مكانها ..

ولكن عيب هذا الرأي أنه يجرد التاريخ – وهو سجل كفاح الشعوب من أجل المزيد من حريتها – من الإرادة الإنسانية .. ويجعل التاريخ سلسلة من المصادفات .. تماما كم يتصادف أن يمر الإنسان فوق لغم .. فيموت .. ولكن المصادفة كثيرا ما حدثت فى التاريخ وغيرت مصائر الناس. غير أنه من الممكن أن تقع المصادفة لأحد ، فلا يدرى كيف يستفيد منها ، أو كيف يدفعها مرة أخرى فتعمل لحسابه – وفى حياتي مصادفات ومفارقات كثيرة. وسوف أسجلها فيما بعد ..

فهذا الشاب فاروق قد حاول أبوه أن يجعله شيئا مختلفا. فهو لم يبعث به إلى تركيا ليتعلم العسكرية. أو السياسة فيها .. ولم يبعث به إلى ألمانيا أو حتى أمريكا. فلم يكن ذلك فى استطاعة أبيه فى ظل الإنجليز الذين عينوه على مصر – أى عينوه على مصر وفى نفس

الوقت وظفوه عندهم ليعمل لسابهم – ولم ينس الملك فؤاد هذا الفضل العظيم للإنجليز ، عليه وعلى ذريته من بعده.

ولم يضع الإنجليز وقتا. فقد التقطوا هذا الابن الصغير وأركبوه مدمرة حربية وسافر بها إلى بريطانيا. وفى هذه المدمرة الكثير من المعاني .. فهي سفينة مسلحة .. أى أنها هى الدرع الأمينة التى تحميه .. وقد خلق له الإنجليز أعداء كثيرين وخلق هو أيضا لنفسه ، ليتكفل الإنجليز بحمايته من أعدائه ومن نفسه. ولم يكن فاروق هو المقصود بالحماية ، وإنما المصالح البريطانية ..

** ولكن الملك فؤاد كان حريصا منذ البداية على أن يتعلم ابنه أحسن وأفضل. ولذلك وافق على دراسته فى بريطانيا. وأرسل معه رجلين .. أصبح الرجلان ثلاثة وأربعة وخمسة وعشرين بعد ذلك .. كلهم تعاونوا على تربية أسوأ تربية ، وعلى تكوينه أحط تكوين .. إلا رجلا واحدا هو عزيز على المصرى ..

وهو الأب الروحي لنا ، نحن الشباب الثائر ، وعزيز على المصرى شخصية مصرية فذة. وشخصية عربية قومية. وقد درس العسكرية فى تركيا. وحارب مع مصطفى كمال أتاتورك وله سجل سياسي عظيم ، يفخر به ونفخر نحن أيضا. ويوم يشار إلى عزيز على المصرى فسوف يقال : كان زعيما عربيا قوميا. وهو فى نفس الوقت مصري وطني صميم.

وإلى جانب مفاخره أيضا أنه حكم عليه بالإعدام .

ولم أكن أعرف عزيز على المصرى هذا. ولكنني أعجبت به. ورأيت فيه صورة من صور البطولة والشجاعة والصدق. وتمنيت أن أعرفه. عرضت فكرتي هذه على الشيخ حسن البنا. ورتب لي موعدا معه. فكان لابد أن أذهب لعيادة دكتور إبراهيم حسن ، وكيل الأخوان المسلمين .. وكانت له عيادة على ناصية شارعى المبتديان والسيدة زينب. وذهبت. ودخلت. وقابلت الممرض. ودفعت له ثمن التذكرة ، وأدخلنى للطبيب ، ولما ذكرت له اسمى فتح لى باب ودخلت لأجد نفسى أمام عزيز على المصرى !

ولم أر د. إبراهيم حسن بعد ذلك. فبعد قيام الثورة ذهبت إلى جامع عمر مكرم لأعزى فى صديق. ووجدت وجوها غير التى توقعت أن أراها. ولما سألت عن الفقيد قيل لي إنه د. إبراهيم حسن. وكانت مفاجأة مؤلمة. فقد كان الرجل طبيبا مخلصا ، ولو عرفت أنه هو الذى مات لذهبت إلى أهله وعزيتهم فى بيتهم قبل أن أجئ إلى جامع عمر مكرم ..

وكان الغرض من سفر عزيز على المصرى مع الأمير الطفل فاروق أن يعلمه "الانضباط" العسكرى والأخلاقى. أى الغرض هو وضعه فى قوالب نظيفة. لأنه ليس طفلا عاديا ، وإنما هو طفل ملك. وعيوبه تعود بالوبال على مصر ، ومزاياه ترجع بالخير عليها وعلى شعبها ..

وحاول عزيز على المصرى كثيرا جدا. وقد سمعت منه أعجب القصص وأغربها عن مجاهداته مع فاروق وأحمد حسنين.

وفجأة وجد عزيز على المصرى أن الملك فؤاد قد استدعاه إلى مصر. ولابد أن يكون سبب ذلك شكوى فاروق ، وأحمد حسنين من الجدية والصرامة التى يعامل بها الملك الصغير. فكثيرا ما ذهب عزيز على المصرى ليوقظ الأمير صباحا ، فوجده مخمورا. وعندما يسأله متى عاد سموكم ليلة أمس ؟

فيقول له : الساعة الثالثة صباحا .

- ولكن كيف ؟

- هكذا !

- وسوف تفعل كذلك كل يوم .

- أعتقد ذلك ..

ويكون مثل هذا الرد دليلا على أنه لا معنى لأى تثبيت عزيز على المصرى بالخطة التى وضعها ليجعل من الطفل الناعم شابا صلبا ، ليكون بعد ذلك ملكا رجلا قويما !

وإذا نظر عزيز على المصرى إلى أحمد حسنين يعد عليه كيف سمح لهذا الأمير الصغير بأن ينهار ويسقط فى الوحل هكذا. يكون رد أحمد حسنين : إنها إرادته السامية.

ويسأل : ولكن أين واجبك !

ويكون الرد : واجبى أن أطيعه !

** ومعنى ذلك أن واجب عزيز على المصرى أن يطيع الأمير أيضاً .. ولم يكن عزيز المصرى ، بتاريخه وشخصيته وكرامته ليقبل مثل هذا الهوان. فلما استدعاه الملك فؤاد، فقد أجابه دون أن يدرى إلى أعز أمانيه ..

ولابد أن يكون فاروق وأحمد حسنين والإنجليز هم الذين شكوا من عزيز المصرى ومن تشدده وتسلطه على الأمير الصغير !

ولذلك فأحمد حسنين هو أول من أفسد هذا الغلام حتى أطاعه واستسلم له. وراح يحميه ويدافع عن حماقاته .. قد اشترى أحمد حسنين رضا الملك بأى ثمن. ولو كان ذلك الثمن أن يتحول من مدرس إلى مرشد فى كباريهات وسهرات لندن الحمراء .

وبعد أحمد حسنين جاء كثيرون أضافوا لمسات عنيفة إلى شخصية فاروق ولذلك فعندما جاء فاروق إلى مصر بعد وفاة والده كان على استعداد تام لأن يكون فاسدا منحلا. وكل ما ينقصه أن يجد التشجيع من أحد. والذين شجعوه قالوا : أنت الملك أنت إرادة الشعب. أنت إرادة الله. الكلمة الأولى والأخيرة لك. ولا صوت يعلو على صوتك. وأنت العالم الأول والعامل الأول. والمؤمن الأول ..

ولم يكن فاروق فى حاجة إلى مجهود كبير من أحد ليكون كل هذه الصفات ثم يفرضها على الناس ويصدقها قبل أن يصدقوها. ولم يصدقها إلا الطامعون فى السلطة ..

وما أكثرهم بين الأغلبية وبين الأقلية أيضا !

وعند وفاة والد الملك فؤاد استدعى فاروق على عجل ليكون ملكا على مصر. جاء صغيرا دون السابعة عشرة من عمره. ولكن مصر كلها انتظرت مقدم الشاب اللطيف الوسيم المحبوب – والذى أحبه الناس ، أحبوا أن يكون أملهم فى حياة أحسن. أى أن يكون أحسن من والده الذى طغى وبغى.

وانتظرت مصر بكل شعبها مقدم الملك فى الإسكندرية. ووقف الناس على جميع محطات السكك الحديدية بين الإسكندرية والقاهرة. وكان استقباله شعبيا ومن القلب.

فقد أحس الناس بفطرتهم ، أنه من الممكن أن يكون أوبه فاسدا ، وألا يكون هو كذلك .. أو يكون تعويضا عن فساد والده. وأنه ليس من العدل أن يأخذوه بجريدة أبيه. وكان الناس مخلصين ومتسامحين فى ذلك. فقد ضاقوا بأبيه ، ولا معنى لأن يضيقوا بابنه الذى لم يفعل شيئا .. بعد .. وتمنى الناس أن يفعل الابن أفضل وأصدق وأعم وأشمل مما فعله أبوه ضد الشعب !

** ولم يمض وقت طويل حتى بدأت أجهزة السياسة الجهنمية تتحرك بسرعة .. فقد وجد على ماهر رئيس الوزراء فى ذلك الوقت أن فاروق لم يبلغ سن الرشد ، بالحساب

الميلادي. فأصدر الفتوى بحساب ميلاده بالسنة الهجرية. وبالحساب الهجري نودي به ملكا على مصر.

وهذه الفتوى قد سجلت نصرا لعلى ماهر على غريمه أحمد حسنين .. فاقترب خطوة من الملك الشاب .

وقد رأى الناس العقلاء فى ذلك الوقت أنه ما دام قد ظهر حول الملك أناس من مثل على ماهر ، وأنهم استطاعوا بهذه السرعة تطويع التاريخ الهجرى لصالح العرش ، فليست هذه إلا باكورة التزوير والتضليل من أجل مزيد من السلطة. وكان استنتاج هؤلاء الحكماء فى موضعه لولا أن الفرحة التى غمرت الناس بتولى فاروق الحكم ، قد غطت على صوت الحكماء .

وبسرعة تزوج الملك فاروق. ورأى الشعب فى هذا الزواج المبكر دليلا على الاستقامة. فلم يكن أيسر من أن يمضى الملك فى اللهو والعبث ، وسوف يجد المنافقون ألف مبرر لذلك .. كأن يقال إنه صغير ، وكأن يقال إنه يحب أن يجرب ، وأن يقال أن الملك مشغول بالسياسة عن الحياة العائلية .. كثير جدا الذى يمكن أن يقال ، وقد قيل أيضا.

ولكن الشعب وجد فى رغبة الملك فى الزواج مبكرا ، ثم فى الزواج ، دليلا على أنه ليس كوالده. والشعب يحب أن يكون حاكمه مستقيما. لأن يكون قدوة. لأنه ليس منطقيا أن يطلب الحاكم من الشعب أن يستقيم وهو معوج ، وأن يطلب إليهم الإيمان وهو ملحد ، وأن يطلب إليهم التمسك بالروابط العائلية وهو منحل. ولذلك كان زواج فاروق من فريدة ذو الفقار فاتحة خير.

ولكن عرف بعض الناس أنهم كانوا يغلبون الأمل على الحقيقة. وأنهم يحلمون .. فلم يختلف فاروق عن والده. بل كان أسوأ وأحط. وكانت زوجته فريدة تعرف ذلك وتدارى عليه. حرصا على كرامتها ، وعليه هو ، ولكن لم تفلح هى ولا غيرها فى إخفاء عورات فاروق ، فقد عرف الناس كل شئ ، وفى نفس الوقت لم يكن هو يعبأ كثيرا بأن يعرف الناس .

وعرف الناس أنه يمكن إضافة صفات أخرى إلى الملك فاروق الذى كان العامل الأول والعالم الأول : اللص الأول والمرتشى الأول والمزور الأول .. ثم المهرب الأول لثروته ومجوهراته قبل قيام الثورة ! .

وسرقات فاروق – أو جنون السرقة عند فاروق – سلسلة طويلة من الفضائح الشائنة. التى تصيبه شخصيا وتصيب حاشيته والحكومات المتوالية التى ساعدته على السرقة وعلى التزوير وعلى النهب وعلى الاختلاس دون أن يجرؤ كثيرون أن يقولوا لجلالته : لأ .. عندك !

** بل إن زعيما عندما وقف أمام الملك وكان الملك يرتعش مما تخيل أن سيطلبه الزعيم إذا به يفاجأ بأن الزعيم يطلب شيئا غاليا. ويقول الملك خائفا : أطلب ، قال الزعيم : أن أقبل يدك . !

وكأن ذلك صفعة لمصر كلها .. وهوانا ما بعده هوان. ولكن هوان الشعب فى ذلك الوقت ، كان نياشين على صدور الزعماء !

وبسبب هذا الضعف فى تكوين الملك فاروق النفسى والثقافى ، بدأ قزما أمام عتاة السياسة الحزبية فى مصر. وبسبب هذا الضعف ، كان الملك يحاول أن يبدو أقوى وأكبر .. ومن هنا علموه لعبة تغيير الوزارات وإهانة الرؤساء .. وجمع السلطة كلها فى يده .. دستورية وغير دستورية .. وإصراره على أن يعطى هو الألقاب والنياشين ويعين ويفصل كبار الموظفين فى الدولة وفى الشركات وتجاهله لسلطات الوزراء ورؤساء الوزارات والاتصال برؤساء الدول دون علم من الحكومة أو البرلمان .. ولا يقبل نقدا من أحد ..

واخترع له الوفديون صفة سرية وهمية سحرية اسمها "التوجيهات الملكية" .. فلا يكاد أحد يسأل عن شئ حتى يقولوا له : إنها توجيهات جلالة الملك .. إنها نصيحته السامية .. إنها رغبته العالية .. إنها وإنه جل جلاله – استغفر الله العظيم !

وضاعت وتاهت وضلت العدالة والشرعية بين الرغبات السامية والتهديدات الملكية وخنوع الزعماء ، وخشوع كبار الموظفين والوزراء .. وتوالت الوزارات ونصائح الملك أيضاً. والتف حول الملك كثيرون .. أصدقاء لياليه الحمراء ، وترابيزات القمار الخضراء فى مصر وفى الخارج .. وأصبحت كل مصائر مصر ، يرسمها الملك أو الذين حوله بعد منتصف الليل ..

وكان عرش مصر مثل كرة القطن المبللة بالبنزين التى تنطلق بسرعة هائلة نحو النار .. وكلما أمعنت الكرة فى الانطلاق اكتسبت سرعة أكبر .

** حتى كان ذلك اليوم الشهير 4 فبراير سنة 1942 بعد أن استقالت وزارة حسين سرى باشا. وجاءت الدبابات وحاصرت قصر عابدين. وطلب السفير البريطانى لورد كيلرن تعيين مصطفى النحاس رئيسا للوزراء. وجاءت وزارة الوفد على الدبابات البريطانية تهدد العرش وتدوس الكرامة المصرية.

ولكن أفلح الملك فى أن يسترضى الإنجليز وأن يسامحوه لمجرد أنه تردد لحظة أو لحظتين فى قبول الإنذار البريطانى. فجعلوه جنرالا فى الجيش البريطانى – وقد أسعده ذلك كثيرا !

ولما حاول الملك أن يتخلص من وزارة الوفد هذه بعد سنتين طويلتين عريضتين ، وأن يأتى بأحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكى ، رئيسا للوزراء سارعت بريطانيا بالرفض. وكان الرفض من كلمتين جاءتا فى إحدى البرقيات. كل كلمة منهما كالسيف الذى قطع ما تبقى للملك وللحكومة من كرامة. فقد كانت الكلمتان : لا تغير ..

وكأن هاتين الكلمتين دبابتان بريطانيتان جديدتان أضيفتا إلى بقية الدبابات التى ركبها الوفد إلى الحكم ! وقد سحقت العزة المصرية والكرامة الوطنية فجعلت العرش مقعدا خشبيا لبواب على قصر عابدين ، ولبس لملك أحبه الناس بمنتهى الصدق والإخلاص !

وكان يوم 4 فبراير لطمة للجيش المصرى الذى تلقى الكثير من أشكال الهوان فى عهد فؤاد قبل ذلك .. وفى عهد فاروق : كان فاروق هو الذى يعين القائد العام ويختار وزير الحربية وغيره من الرتب الأخرى. لأنه أدرك أن الجيش يجب أن يكون قاعدته التى يعتمد عليها فى مواجهة الأحزاب أو السفارة البريطانية. ولكنه لم يفعل من أجل الاحتفاظ بهذه القاعدة ، شيئا كريما.

وكانت القوات المسلحة تعلم ، ثم زاد عملها يقينا بعد ذلك ، بأنه لا فرق بين الزعماء ، فهم جميعا يركعون ويسجدون لأى إنسان يجلس على العرش .. أو لأى إنسان يجلس على مقعد السكرتير الشرقى فى السفارة البريطانية .. أى لأى مصدر من مصادر السطة فى مصر !

وتوالت بعد ذلك وزارات وقامت مناقشات ومعارك ، ووضحت وقاحة وسفالات الملك وحاشيته .. فهم يتاجرون فى التحف ويسرقونها له ، وهم يتجرون فى الأسلحة الفاسدة ، التى قتلت القوات المصرية فى مواجهة اليهود .. فلم يكن اليهود وحدهم ، أعداءنا ، وإنما كان بيننا من هم أكثر عداوة من اليهود .. وكان الملك يبيع دماء مصر ويحول ثمنها إلى البنوك

الأجنبية .. وهو الذى طلب من حكومة الوفد أن تعطيه مخصصاته لمدة عام مقدما. وحولت له. وهو الذى باع يختا للدولة ، ثم خصصه لنفسه .. وهو الذى تقاضى أكثر من مليون جنيه إصلاحاً ليخت آخر ، ولم يتطلب إصلاحه إلا بضعة ألوف ، والباقى استولى عليه ..

ومن المؤكد أن فاروق سوف يدخل كتب علم النفس أيضا تحت اسم "كليبومانيا" أى جنون السرقة .. فقد سرق سيف شاه إيران من قبره .. وسرق خنجر أحد اليمنيين .. وسرق مجوهرات وتحفا من قصوره ووضعها فى قصوره الأخرى .. وكانت حاشيته تعرف فيه هذا الداء ، فكانت تضع المسروقات أمامه .. ليخفيها فى جيبه. إنه مريض ولا شك فى ذلك. وليس هذا إلا مرضا واحدا. ولكن من أخطر أمراضه : إحساسه أنه صغير ، فأراد أن يكون كبيرا. ومن مظاهر ذلك أن يتعالى على كل الناس وعلى الزعماء بصفة خاصة ..

** وفى كتب التاريخ ، والصحف المصرية والأجنبية الكثير جدا. الذى لا حاجة بى لأن أسرده هنا حتى لا أبعد عن "سياق" الأحداث وعن المعنى الذى وجدته مناسبا لهذه الأوراق : " هو التأصيل بلا تفاصيل " .

ويكفى أن أتابع بعينى تعدد الوزارات وأشكالها فى نهاية الأربعينات وبداية الخمسينات فى حكومات : سعدية وائتلافية ومحايدة وبعد ذلك حكومة وفدية جاءت بأغلبية. وكانت هذه الأغلبية غربية. وتنطبق عليها العبارة الشهيرة : لا حبا فى "على" ولكن كراهية فى "معاوية" .. فقد اكتسح الوفديون فى الانتخابات فقد ضاق الناس بما حدث فى عهد النقراشى وإبراهيم عبد الهادى وحسين سرى وضاقوا بالملك والإنجليز وتعلقوا بأوهام من بينها أن الوفد يستطيع أن يحقق لهم شيئاً .. وقد لاحظ المؤرخون أن الانتخابات الوفدية لم تحقق نجاحا فى المدن وإنما فى الريف حيث تعاونت عناصر كثيرة على الضغط وتحقيق نوع من النجاح المشبوه ..

ولما لم تحقق هذه الوزارة الوفدية شيئاً توالت صدمات الناس .. وتحولت أصابعهم إلى مشاعل من النار تحرق كل شئ بعد ذلك فى مصر. حتى اكتملت النيران كلها فى حوادث القناة وبعد ذلك فى القاهرة ..

** وكانت أياما تحرك فيها التاريخ على وهج النار وليس على ضوء النور .. حتى كانت ثورتنا التى كان أكثرها نورا ، وأقلها نارا ..

ولكن عندما أتذكر ماذا حدث لى بسبب أن حكومة حسين سرى باشا المحايدة قد أشرفت على الانتخابات .. وأشرفت على الإعادة ، فإننى أجد شيئاً عجيبا .. بل لا غرابة ولا عجب فإنه من صنع الله وتدبيره !